المنهج الاجتماعي

اهتم التنظير الأدبي منذ القديم بالعلاقة الوثيقة التي تربط الأدب بالمجتمع ، و لعل في طرد أفلاطون للشعراء الغنائيين من جمهوريته الفاضلة و الإبقاء فقط على الأناشيد التي تمجد الأبطال و الآلهة دلالة عميقة على الدور الاجتماعي الذي ينشده الأدب من منظور هؤلاء المدافعين عن "مثالية" الوظيفة الاجتماعية للأدب .

أما في العصر الحديث فيعود البحث في الأصول الاجتماعية للأدب و الفن بشكل عام إلى هيبولت تين الذي مهد بثالوثه (الجنس- البيئة – العصر) إلى اجتماعية الأدب و التأسيس لفكرة الأدب مرآة المجتمع ، و هي فكرة ستأخذ أكثر من بعد و ينتج عن ذلك أشكال متعددة للمنهج الاجتماعي في النقد الأدبي و هي أشكال تتغذى إيديولوجيا من الفلسفة الواقعية التي تنقسم ثلاثة اتجاهات :

- الواقعية النقدية (البورجوازية) : و هي الاتجاه الذي اهتم بتشخيص الداء دون اقتراح الحل و يتسم بكونه اتجاها فرديا حيث الفرد في مواجهة المجتمع الدولة و الطبيعة .
- الواقعية الاشتراكية: لا يستهدف هذا الاتجاه معرفة العالم و نقده فحسب بل يعيد تشكيل الواقع متجاوزا النقد إلى التحسين.

-الواقعية الطبيعية : يستعين هذا الاتجاه بالتجارب العلمية و الأبحاث الفيزيولوجية للتوصل إلى تصوير حقائق الإنسان الداخلية و الخارجية.[1]

و على العموم فالفلسفة الواقعية ترى أن أي تغير في البناء التحتي (أي العلاقات الاقتصادية و الإنتاجية) يؤدي إلى تغير البناء الفوقي (الوعي الذي يضم الثقافة و الفلسفة و الفكر و الفن و القوانين و الدساتير) لكن البناء الفوقي يؤثر بدوره في البناء التحتي إذ يثبته أو يحوره أو يدعو إلى تغييره " إن كل تغير في علاقات الإنتاج أو في البناء الاقتصادي – الاجتماعي يؤدي إلى تغيير بنية الوعي ، لكنه لا يعني في الوقت ذاته أن الأدب مجرد تابع و متلق للظروف الخارجية لأنه ظاهرة متطورة أي تؤثر و تتأثر بالعلاقات الاجتماعية مثلما يؤثر البناء الفوقي بعد استقراره في تثبيت أو تحوير أو هدم البناء التحتي" [2]و القول بكون الأدب انعكاسا للمجتمع يجعل المقياس الأول الذي تقوم بواسطته الأعمال الأدبية يرتكز على مدى تعبيرها عن مجتمعاتها و ما بدور فيها من صراعات و عن عصرها و ما يطفح به من تطلعات الطبقات و أحلامها ، و العمل الجيد بالتالي هو العمل الذي يحقق انتشارا واسعا بين القراء.

و إذا كانت الكتابة الواقعية عرفت مع بلزاك و فلوبير و إميل زولا فالدعوة إلى دراسة اجتماعية الأدب تبدأ كما لاحظنا مع رواد المنهج التاريخي و تستمر مع مدام دوستايل في كتابها " الأدب و علاقته بالنظم الاجتماعية " و هو كتاب درست فيه مدى تأثير الدين و التقاليد و النظم في الأدب ، و مدى تأثير هذا الأخير في المقابل في الدين و

---

[1] -صلاح فضل :منهج الواقعية في الإبداع ،الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر، 1978.

[2] -شكري عزيز الماضي : محاضرات في نظرية الأدب ، ص 78.

التقاليد و النظم ، و تتواصل بشكل منهجي مع مؤلفات "جورج لوكاتش" و " لوسيان غولدمان" صاحب كتاب " من أجل دراسة اجتماعية للرواية".

و تركز معظم الدراسات الاجتماعية الممنهجة للأدب على دراسة ثلاثة حقول : حقل الدراسة الاجتماعية للمؤلف، حقل الدراسة الاجتماعية للعمل الأدبي نفسه ، و حقل الدراسة الاجتماعية للجمهور القارئ.

و يجري الاهتمام في الحقل الأول بالمؤلف كفرد في طبقة اجتماعية بعينها ، له انتماءات إيديولوجية و أخلاقية تؤثر بالضرورة في منظوره الفني و الإبداعي ، كما يهتم الدارس في الحفل الثاني بالعمل الأدبي من حيث كونه يمثل قيما اجتماعية و يجسد مصالح قوى و فئات اجتماعية معينة ، بينما تتعرض الدراسة الاجتماعية للجمهور إلى التعرف إلى طبيعة الجمهور المتلقي للنص و خصوصيته الإيديولوجية و الطبقية . [3]

و على العموم يمكن التمييز بين اتجاهين كبيرين في هذا السياق هما الاتجاه التجريبي و الاتجاه الجدلي.[4] فأما الاتجاه التجريبي فيعتمد على نوع من الدراسة الموضوعية للأدب باعتبار هذا الأخير ظاهرة اجتماعية تشبه باقي الظواهر التي يمكن إخضاعها للتحليل العلمي . و عليه يقوم الدارس بتجميع كافة المعلومات المتعلقة بالأعمال الأدبية مثل البيئة التي أنتجت فيها هذه الأعمال ، و طبيعة المؤسسات التي قامت بنشر هذه الأعمال ، و عدد الطبعات التي صدرت منها ، و طبيعة القراء الذين تداولوها و ردود

---

[3] Albert Mimi :problemes de la sociologie de la littérature ,paris,puf,1963, tome2, pp229-314.

[4] -صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ، ص 48-55.

أفعالهم حيال هذه يها و هي ردود تتحكم فيها عوامل مختلفة . كما يهتم هذا التيار برصد مختلف العوائق التي صادفتها الأعمال الأدبية و يحاول تفسير كل ذلك. و يمثل هذا التيار " ألبير ميمي" و "روبير اسكاربيه" الذي أكد باستمرار على أن المنهج الاجتماعي يتلخص في العناية "بإنتاج الأدب ، تسويقه ، و استهلاكه" [5] و يبدو الكاتب في هذا المنظور منتجا لسلعة ، و لذلك تتوجب دراسة طبيعة هذا المنتج و وضعه الاقتصادي و انتمائه العائلي و مهنته ، ثم الانتقال إلى الإنتاج نفسه و دراسة عملية النشر و التسويق و العوامل التي تتحكم فيها ، و هي عوامل مختلفة من مجتمع إلى آخر ، ثم الانتقال إلى دراسة العلاقة بين الأديب – الأدب و الجمهور و مختلف دوافع الاستهلاك .

إذا انتقلنا إلى التيار الجدلي في المنهج الاجتماعي نجد أن أكبر منظر له هو الناقد جورج لوكاتش الذي توسع في دراسة سوسيولوجيا الأدب و خاصة قضية سوسيولوجيا الأجناس الأدبية ، ووقف عند الرواية على اعتبار أن نشأتها لصيقة بنشأة المجتمع الرأسمالي. و من هنا راح يدرس الأدب كانعكاس للمجتمع و تمثيلا لقيمه ، و يدرس الأجناس الأدبية بدورها كتمثيل للتغيرات الاقتصادية و الاجتماعية.

---

(5) –Robert escarpit , sociologie de la littérature , serie Que –sais-je, n777p05.

و بعد لوكاتش جاء "لوسيان غولدمان " الذي تجاوز الاهتمام بالكم إلى الاهتمام بالكم إلى الاهتمام بالكيف ، و حقق بالتالي نقلة نوعية للمنهج الاجتماعي ، و يمكن تلخيص رؤية غولدمان في مجموعة نقاط كالآتي :

-الأعمال الأدبية لا تعبر عن مشكلات فردية بل تختزل وعيا يشترك فيه الأديب مع الجماعة التي ينتمي إليها ، و بذلك يكون العمل الأدبي صورة للضمير الجمعي ، و كلما تجذر الأديب في مجتمعه نجح في تجسيد المنظور الجماعي.

- يتميز العمل الأدبي بمجموعة من الأبنية الدلالية التي تلتحم فيما بينها لتشكل البنية الدلالية الكلية، و هي المقابل الفكري للوعي الاجتماعي.

-كل عمل أدبي في رأي غولدمان ينطوي على "رؤية للعالم" و هي رؤية تتبلور مع مختلف أعمال الأديب الواحد أو العصر الواحد، و رؤية العالم تعبر عن الوعي المتحقق و الوعي الممكن في الوقت نفسه. [6]

-النص بنية دالة : يحلل لوسيان النص كبنية شاملة لها بنيات صغرى و كبرى (العناصر الصوتية ، التركيبية ، الدلالية ، السيميولوجية ...) و يشكل هذا عملية الفهم la compréhension و استخلاص رؤية العالم .

بعد هذا يفسر غولدمان الرؤيا خارجيا و هو ما يسميه بالتفسير .explication و يتم ذلك بالتركيز على العوامل التاريخية و السياسية و الثقافية و النفسية. إن الفهم يتم إذا في ظل التركيز على النص، بينما يتم التفسير في ضوء العناصر الخارجية.

---

[6]-صلاح فضل : مناهج النقد المعاصر ، ص 56-58.

- رؤية العالم : هي مجموعة التطلعات و الأفكار و العواطف التي تجمع طبقة بعينها .و هي بشكل ما الأحلام و التطلعات الممكنة و المستقبلية .(رؤية التيار الإسلامي في الأدب غير التيار الليبيرالي أو الاجتماعي ...)

-التماثل : الأشكال الأدبية هي تمثيل للبنى الاجتماعية و الاقتصادية .

-الوعي القائم la conscience réelle والوعي الممكنla conscience possible :
الوعي الحاضر لدى طبقة ما و الوعي الممكن هو وعي إيديولوجي ، وعي التغيير و التطوير.

إن لوسيان غولدمان يهدف من وراء بنيويته التكوينية إلى رصد رؤى العالم في الأعمال الأدبية ، عبر عمليتي الفهم و التفسير ،و هو يعد المبدع في العمل الأدبي فاعلا جماعيا ، يعبر عن وعي طبقة ينتمي إليها ، و هي خصم لطبقة اجتماعية أخرى لها تصور مختلف عن العالم ،كما أن المبدع يصوغ منظور الطبقة التي ينتمي إليها أو رؤية العالم التي تعبر عنها بصيغة فنية تعكس الواقع الموضوعي.

إذا انتقلنا إلى الوطن العربي سنجد أن الاهتمام بالأدب و النقد من منظور اجتماعي قد بدأ مع أمين الخولي و أحمد أمين الذي دعا الأدباء إلى الانغماس في مجتمعهم الحاضر يشتقون منه رواياتهم و أقاصيصهم و شعرهم و مقالاتهم و يصوغون منه فنونهم الأدبية و ذلك بتصوير أوضاع الفلاحين و الصناع و المساكين و مختلف الأمراض الاجتماعية من تعاسة المرأة و فقر الأسر و بؤس الطلبة ...إلخ. فهذه هي الأمراض التي ينبغي للأديب أن " يعالجها و يشرحها و يحللها" و في هذا السياق يحكم أحمد أمين على الأدب العربي القديم بأنه –في مجمله – أدب الخاصة لا أدب العامة ، فقد اهتم دائما بطبقة الملوك و الأمراء و حواشيهما و لم يلتفت إلى الفئة العريضة في المجتمع ، عامة الشعب ، و لعل في حكمه هذا الكثير من الصواب إذا استثنينا حالات شعرية شاذة كحالة ابن الرومي في العصر العباسي.

و الواقع أن حرارة الدعوة إلى اجتماعية الأدب نلمسها مع الكاتب سلامة موسى صاحب كتاب " الأدب للشعب" و العنوان كما نرى تقريري لا يختلف عن الشعارات السياسية و الاجتماعية التي يرفعها المتحزبون في كل مناسبة. و يرى الكاتب في هذا المؤلف أنه يتوجب على الأديب العربي – إذا أراد أن يواكب الأديب الغربي – أن يراعي مجموعة شروط في إبداعه ، و نوجز هذه الشروط فيما يأتي :

-أن يكتب الكاتب بلغة الشعب عن قضايا الشعب و اهتماماته الحياتية و مشاكله اليومية.

-أن يؤمن الكاتب بأنه معلم و مربي في المقام الأول.

-أن يمتلك الكاتب نظرة إنسانية.

-أن يزيد الكاتب "حياة القارئ حيوية بالتوسع و التعمق و الفهم للكون و الدنيا و الإنسان"[7]

و بتأملنا لهذه الشروط نلاحظ أنها تنطلق من المعيار الاجتماعي رافضة الأدب الملوكي ، كما أنها تكرس المعيار الماركسي الذي يؤمن بجدوى الأدب في الإصلاح الاجتماعي ، و توثق الرباط بين الأدب و الأخلاق من جهة و بين الأدب و إنسانية الإنسان من جهة أخرى.

و إذا كان أحمد أمين و سلامة موسى يعدان من المؤسسين الأوائل لفكرة اجتماعية الأدب في الوطن العربي فتبلور المنهج الاجتماعي في النقد العربي الحديث تم في الحقيقة بمساهمة محمود أمين العالم و محمد منذور و لويس عوض و غالي شكري و مثل هؤلاء الاتجاه الماركسي ، كما تبلور أيضا بمساهمة عبد القادر القط ، و عبد

---

[7]- سلامة موسى : الأدب للشعب ،مؤسسة هنداوي للتعليم و الثقافة، القاهرة ن مصر، 1956.

المحسن طه بدر ،و شكري عياد و رجاء النقاش و مثل هؤلاء الاتجاه الإنساني حيث الحياة أشمل من الفرد و الأدب الجيد هو الأدب الإنساني اللامحدود.